فلسفة بنتام النفعية
دراسة نقدية في ضوء الإسلام

دكتور
محمد مصطفى أحمد البيومي
مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بطنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

µ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فقد خلق الله تعالى الإنسان وهداه إلى ما يحفظ له بقاءه ، وبين له ما ينفعه وما يضره في شريعة واضحة مفصلة تهدي من اتبعها إلى صراط مستقيم ، فيجمع من خلالها بين خيري الدنيا والآخرة .

لكن مع النظرات القاصرة للإنسان ولرسالته في الحياة ظهرت فلسفات تعلي من جانب المادة ، وتقصر الهم على الحياة الدنيا ، فلا نعيم إلا فيها ، ولا شقاء إلا في الحرمان من ملذاتها ، فتجاهلت من ثم الدين والروح ، وتأتي فلسفة بنتام النفعية على رأس تلك الفلسفات ، والتي كان لها أبلغ الأثر في جمهرة العلمانيين والليبراليين على السواء ، فرددوا عباراته ، وانتهجوا نهجه ، معلنين أن لا سبيل إلى الحرية والتقدم إلا من خلال السير على هداه ، فهذا الفيلسوف تصدر حركة الإصلاح في عصره ، وانتشرت فلسفته انتشارا واسعا، وأراد أن يحول الدراسات الأخلاقية إلى علم واقعي كالعلوم التجريبية يمتاز بالدقة والضبط .

ومن هنا رأى الباحث أهمية دراسة هذا الجانب عند بنتام ، ليتبين من خلال فلسفته مواطن القصور والضعف التي تجعل بناء النفعيين متهاويا .

وقد اتبعت في هذه الدراسة **المنهج التحليلي والنقدي** حيث أتناول آراءه بالتفصيل مع النقد والتفنيد .

وهذا البحث مكون من :

مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة وفهرس للمراجع والموضوعات .

المقدمة : لبيان أهمية الموضوع وسبب اختياره ومنهج البحث وخطة الدراسة .

التمهيد : التعريف ببنتام .

المبحث الأول : تعريف المنفعة عند بنتام.

المبحث الثاني : حساب اللذات .

المبحث الثالث : المنفعة والسعادة .

المبحث الرابع : قيمة الواجب عند بنتام .

المبحث الخامس : اللذة والسلوك الإنساني .

المبحث السادس : الإسلام والمنفعة .

الخاتمة : لبيان أهم نتائج الدراسة .

فهرس المراجع .

فهرس الموضوعات .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء الصراط .

تمهيد : التعريف ببنتام

جيرمي بنتام 1748 – 1832 م :

مشرع إنجليزي معروف ولد في لندن ابنا لوكيل دعاوى ثري ، وتلقى من التعليم ما يؤهله لممارسة مهنة أبيه ، وكان يأمل من دراسته أن يكون محاميا لكن عيوب القانون وتطبيقه جعله يكرس حياته لإصلاحه. [1]

من خلال إقامته على أساس علمي ، ودحض القانون الطبيعي من أساسه، وقد انتهى به اهتمامه بنظرية القصاص إلى تصميم سجن نموذجي أو ما يسمى ببيت المراقبة ، وبالرغم من موافقة الحكومة على المشروع إلا أنها لم تقم بتنفيذه قط.[2] فقد كان (معنيا قبل كل شيء بالتشريع ، حيث استمد أفكاره الأساسية من هلفسيوس[3] Helvetius وبيكاريا [4] beccaria فالأخلاق عند بنتام

---

(1) انظر: في تاريخ الأخلاق – د . محمد يوسف موسى – مطبعة أمين عبد الرحمن القاهرة م ، الموسوعة الفلسفية المختصرة – نقلها عن الإنجليزية / فؤاد كامل وزميلاه – مراجعة وإشراف / د . زكي نجيب محمود – دار القلم بيروت لبنان – بدون تاريخ .

(2) انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة .

(3) هلفسيوس – م من دعاة المادية ، ويعد من مؤسسي المنفعة العامة في الأخلاق ، ودعا إلى إصدار قوانين ملزمة لرعاية ذلك . انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم .

(4) بونيسارا بيكاريا – م رجل قانون إيطالي . له مقترحات وإصلاحات قانونية في الجزاء والعقاب لاقت رواجا كبيرا في أوربا . انظر : تاريخ الفلسفة – إميل ببرهييه – ترجمة جورج طرابيشي – دار الطليعة للطباعة والنشر لبنان – ط / م / .

هي قبل كل شيء أساس لدراسات عن الأساليب التشريعية الكفيلة بإدخال أفضل التحسينات على الأوضاع) [1]

إذن دراسة بنتام للأخلاق كانت من أجل الدراسات التشريعية التي كانت محور اهتمامه .

ومن هنا (عاش بنتام طوال حياته مكبا كل الإكباب على العمل المنتج راضي النفس مضحيا بكل لذائذه في سبيل أن يرفع مستوى الحياة الإنسانية) [2]

ومن أهم أعماله : وضع مشروع لسجن نموذجي سنة 1802 م ،وإنشاء مجلة وستمنستر سنة 1824 م يدعو فيها إلى الإصلاح الدستوري ، وأسس حزبا لهذا الغرض ، وكان يأمل إصلاح السياسة الإنجليزية ، ودون مذكرات في المكافأة والمعاقبة وعلم الأخلاق .[3]

وهو زعيم القائلين بمذهب المنفعة الإنجليز في العصر الحديث ، واستعمل لفظ النفعية ليدل على التوجه الأخلاقي لعقيدته . [4]

وعلى غير عادة الإنجليز التي اشتهرت بالفردية في الفلسفة كانت فلسفة بنتام من نوع خاص ، إذ أسس مدرسة فلسفية وحزبا سياسيا لعب دورا كبيرا في الحياة السياسية في انجلترا . [5]

---

(1) حكمة الغرب – برتراند رسل .

(2) فلسفة اللذة والألم – إسماعيل مظهر – مكتبة النهضة المصرية .

(3) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – دار المعارف بمصر .

(4) انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ، موسوعة لالاند الفلسفية – أندريه لالاند – تعريب د . خليل أحمد خليل – منشورات عويدات – بيروت .

(5) انظر: تاريخ الفلسفة – أميل ببرهييه /.

(وأصبح ملهما وهاديا لأنصار مذهب الأحرار في جميع أرجاء العالم ، وتوفي بنتام أثناء فتنة قانون الإصلاح ، ويمكن مشاهدة جثمانه المحنط في الكلية الجامعية التابعة لجامعة لندن ، والتي كان بنتام أحد مؤسسيها الرئيسين) [1]

وكان بنتام ومجموعته (يبدون اهتماما كبيرا بالإصلاح الاجتماعي والتعليم ، وكانوا معارضين بوجه عام لسلطة الكنيسة وللامتيازات التي تحتكرها الطبقة الحاكمة في المجتمع)[2]

وانتهى بنتام إلى إنكار الدين ومعاداته بشدة ، وجعل التعليم محل اهتمامه ؛لأنه من وجهة نظره الكفيل وحده بمداواة عيوب المجتمع ، ومن ثم ساهم في إنشاء الكلية الجامعية في لندن 1825 م .[3]

نحن إذن أمام شخصية لها ثقلها السياسي والفلسفي والاجتماعي كانت تطمح إلى بناء دولة على نسق خاص تكون السيادة فيها للنفعية لبلوغ هدف منشود وهو السعادة لأكبر قدر من الناس .

فلسفة النفعية من خلال مخططه الإصلاحي لم تكن تخيلا يخطه فيلسوف لمدينة فاضلة ، بل كانت وسيلة وغاية ينشد تحقيقها ، وأملا راود الفيلسوف ردحا من الزمن تحول على مر الأيام واقعا ملموسا وسياسة تنتهجها الكثير من الدول المنفعة فقط هي المحرك الأساسي لها ، ولكن كلٌ له نظرته وأهدافه ودوافعه .

وفي الصفحات القادمة – بحول الله وقوته – نتعرض للنقاط الأساسية المشكلة لفلسفة بنتام النفعية تحليلا ونقدا لنقف على المواطن الإيجابية والسلبية فيها .

---

(1) الموسوعة الفلسفية المختصرة .

(2) حكمة الغرب – برتراند رسل / .

(3) انظر: نفس المصدر والصفحة .

المبحث الأول : تعريف المنفعة عند بنتام

يعرف بنتام المنفعة بأنها :

(خاصية الشيء التي تجعله ينتج فائدة أو لذة أو خيرا أو سعادة) أو (خاصية الشيء التي تجعله يحمي السعادة من الشقاء أو الألم أو الشر أو البؤس بالنسبة إلى الشخص الذي تتعلق به المنفعة)[1]

اللذة والألم الخير والشر أساس مذهب بنتام النفعي ، فما يحصل لذة ويجنب ألما فهو نافع ، وهذا بعينه ما ردده فلاسفة اللذة في مختلف العصور مثل أبيقور[2] وهوبز[3] ومن لف لفهما .

ولكن (تتميز المنفعة من اللذة في كون المنفعة تتعلق خصوصا بالوسائل المؤدية إلى تحصيل اللذات)[1]

---

(1) الأخلاق النظرية – د . عبد الرحمن بدوي – وكالة المطبوعات الكويت ط 🗁/🖮🗁 🖮🗐🖹 -🖱🗐🖹 ، وانظر : تأملات في فلسفة الخلاق – منصور علي رجب – مطبعة مخيمر القاهرة ط 🗁 / 🖹🖮🗁 م 🗁🗀🖹 -🖹🗀🖹.

(2) أبيقور 🖹🗐🖹 – 🗀🖮🖹 ق . م أثيني المولد قضى بضع سنوات في آسيا الصغرى ، ثم عاد إلى أثينا وهناك أنشأ مدرسة في الحديقة كان يعلم فيها إلى موته . أشهر ما يعرف به نظريته في اللذة ، واللذة عنده حسية وعقلية وينبغي الاختيار بينها . مما تبقى من كتاباته : خطابه إلى هيرودوت وإلى مينوكوس . انظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة - نقلها عن الإنجليزية – د . فؤاد كامل وآخرون 🖱🗁 - 🖹🖹

(3) توماس هوبز 🖱🖱🗐🗁 -🖮🖮⌛🖮🗁 م فيلسوف إنجليزي من أوائل الماديين المحدثين ، سجل اعتراضات على تأملات ديكارت تبينت منها فلسفته . من أهم كتبه : مبادئ القانون الطبيعي والسياسي ، في الجسم . انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم 🗀🗐 -🗁🗐 .

وكذلك الخير والشر أصبح مرتبطا باللذة والألم ، فاللذة تنتج خيرا ، وأصبح مفهوم الخير عند بنتام مرادفا للذة .

فاللذة (يجب أن تؤخذ دائما وحيثما كانت وفي أي صورة كانت على أنها خير)[2] (وأن الفعل الشرير هو الذي يعود بألم مستمر أو الذي يزيد فيه الألم على اللذة)[3]

والخير في وجهة نظره أمر مادي فقط ، فبنتام (كثيرا ما يستخدم لفظ الخير ولكنه يخلع على هذا المفهوم طابع العملة أو النقد ، وآية ذلك – مثلا – أنه حين ينظر إلى السكير فإن كل ما يقوله عنه إنه يشتري لذة السكر بثمن باهظ ، وكأن هذا هو المأخذ الوحيد الذي يمكن أن يوجه إلى مدمن الخمر)[4]

وكذلك يوجه بنتام نظر الدولة إلى الاهتمام بما يجذب السائحين على اختلاف ميولهم يستوي في ذلك أن يكون الجاذب خيرا أو شرا فضيلة أو رذيلة المهم في نظره فقط المنفعة المادية .

يقول بنتام :

(إن في الزينة والتحسين منفعة؛ لأنها تساعد على جلب الغرباء في البلد ينفقون فيها من أموالهم ويتبارزون بمتاجرهم ، وكلما تقدمت الأمة في التحسين وإنشاء البدئيات صار لها على غيرها شبه ضريبة يؤديها الناس بلا شعور، فالبلد التي توفرت فيها أسباب الزينة مما يروق الخاطر أشبه شيء بملهى يتوارد إليه الناس أفواجا على اختلاف طبقاتهم ليروا ما فيه من الألعاب ، ويدفعون رسما

---

(1) الأخلاق النظرية – عبد الرحمن بدوي ▭▭▭.

(2) فلسفة اللذة والألم – إسماعيل مظهر –مكتبة النهضة المصرية ▭▭▭ م ▭▭.

(3) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم ▭▭▭ ، وانظر : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد – ترجمة د . فؤاد زكريا – دار نهضة مصر ط ▭ / ▭▭▭م ▭▭▭.

(4) المشكلة الخلقية – د . زكريا إبراهيم – مكتبة مصر ط ▭ / ▭▭▭ م ▭▭▭.

زهيدا بالنسبة لكل واحد منهم ، فيتحصل الملهى على قسم عظيم من نفقاته ، وربما كان تقدم الأمم في المحسنات وأنواع الزينة والأدب موجبا لميل الأمم إليها) [1]

ويرى أنه عندما نريد الحكم على فعل ما بأنه خير أو شر يجب النظر في نتيجة العمل ، فإن رجحت اللذات الآلام فخير ، وإلا فهو شر .[2]

ومن هنا يجب النظر إلى النتائج لا البواعث إذ (الباعث في ذاته لا يكون خيرا ولا شرا ؛لأن الباعث الواحد قد يفضي إلى نتائج طيبة ، وقد ينتهي بنتائج سيئة) [3]

ويرى بنتام كفلاسفة اللذة (أن الناس يطلبون اللذة ويتجنبون الألم بالطبع شأنهم في ذلك شأن الحيوان ، ولكنهم يمتازون عن الحيوان بأنهم يتبعون مبدأ النفعية حيثما يعملون العقل)[4]

إذن العقل وحده هو الذي يحول اللذة إلى منفعة حينما يعمل فيها مبادئه وخصائصه .

وحتى لا يحذو بنتام حذو اللذيين الأنانيين في كل شيء جعل لمبدئه في **المنفعة أساسين :**

1- أساس ذاتي : ترك فيه بنتام أمر تقدير المنفعة إلى التقدير الشخصي ، فكل فرد منا هو الذي يستطيع وحده تقدير منفعته وكميتها .

2- أساس موضوعي: ذهب فيه بنتام إلى أنه في حالة وجود ظروف واحدة أمام أشخاص متعددين، فإن منفعة كل منهم تمثل منفعة الآخرين))[1]

---

(1) أصول الشرائع – بنتام /، ، وانظر - .

(2) انظر: الأخلاق – أحمد أمين .

(3) مذاهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – د . توفيق الطويل .

(4) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم ، وانظر : قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية – د . سعد الدين صالح – مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة – ط / هـ م .

أي تحقيق (أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس) [2]

ومن هنا اعتبر كثير من الباحثين أن بنتام هو الواضع لمذهب المنفعة العامة كبديل عن مذهب اللذة الأناني ، فيرى البعض أن بنتام (هو العامل الأكبر على التحول من مذهب اللذة الأنانية إلى مذهب اللذة العامة)[3]

يقول بنتام : (لقد وضعت الطبيعة الإنسان تحت سيدين مطلقين هما اللذة والألم فهما يتحكمان في كل ما نفعل وكل ما نقول وكل ما نفكر فيه ...ويعترف مبدأ المنفعة بهذا الخضوع ويفترضه أساسا لهذا المذهب الذي يهدف إلى تكوين نسيج السعادة بأيدي العقل والقانون) [4]

---

(1) قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية – د. سعد الدين صالح .

(2) الأخلاق النظرية – عبد الرحمن بدوي .

(3) انظر :الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد ، .

(4) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد .

تقويم

رأينا بنتام يعرف المنفعة بالحصول على اللذة وتجنب الألم ، وهذا بعينه ما سبق أن قاله فلاسفة اللذة ، وعلى رأسهم أبيقور. [1]

والغريب أن بنتام جعل الخير مرادفا للذة ، فحصره في هذا المجال الضيق الذي لا يتناسب بالمرة معه كغاية يبتغيها الإنسان ، فأرسطو[2] يعرف الخير بأنه :(عبارة عن الغاية التي تبتغى ، ومن أجل هذه الغاية يعمل الإنسان باستمرار كل الأشياء التي تؤدي إليها)[3]

ويمكننا أن نتساءل : هل الخير مساو تماما للذة ، ويصبح الحصول على اللذة هدفا مبتغى ؟

---

(1) حيث اعتبر اللذة هي الخير الوحيد ، والألم هو الشر الوحيد ، ويؤكد على الترادف بين الأخلاقية والسعادة ، بل جعل اللذة هي أساس الطبيعة الإنسانية ، والمعرفة الحقيقية هي التي توصل إلى اللذة وتجنب الألم . انظر : المجمل في تاريخ علم الأخلاق – د. هـ . سدجويك – ترجمة وتقديم وتعليق د . توفيق الطويل ، عبد الحميد حمدي – دار نشر الثقافة – الإسكندرية ط / م ، مبادئ الفلسفة – أ . س . رابوبرت -، الأخلاق النظرية – عبد الرحمن بدوي ، .

(2) أرسطو طاليس – ق . م فيلسوف يوناني دخل أكاديمية أفلاطون في سن الثامنة عشرة ، ولذكائه سماه أفلاطون بالعقل والقراء ، وظل ملازما لأفلاطون حتى وفاته . من أهم مصنفاته : المقولات –العبارة – التحليلات الأولى – التحليلات الثانية النفس . انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم - .

(3) فلسفة اللذة والألم – إسماعيل مظهر

الحق أن بنتام ومعه النفعيين قد خلطوا بين الخير واللذة ، وهذا ما جعلهم يبحثون عن اللاذ دون التفكير في الغاية منه ، كذلك لا يمكننا المساواة بين الخير واللذة ؛لأنه حينئذ لا يكون لسؤالنا التالي معنى وهو: هل اللذة خير ؟ وهذا تحصيل حاصل ، وبالنظر إلى طبيعة كل منهما يتبين أن النافع يحيلنا إلى شيء آخر بينما الخير لابد أن يكون خيرا في ذاته .[1]

وإذا كان بنتام يرى أن الخير بنتيجته ، فإن جمهرة العقليين يرون أن النية هي المحددة للخير والشر ، بل هناك من يقرر بالقوة المودعة في الإنسان (الغريزة) التي يستطيع من خلالها التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، وهذه القوة لا علاقة لها بالبيئة بل هي غريزية لا مكتسبة منحناها لنميز بين الخير والشر .[2]

يبقى نقل بنتام الفلسفة النفعية من الأنانية إلى العمومية ، فبعد أن كانت عند سابقيه مقصورة على الذات أصبحت عنده مهتمة بالآخر ، وهذا ما جعل كثيرا من الباحثين يؤكدون على تطور النفعية على يديه ، ونتساءل كيف يمكن التوفيق بين منفعة الفرد والآخرين ؟ هذا التساؤل عجز بنتام عن الإجابة عليه كما يقول د . هويدي .[3]

---

(1) انظر : المشكلة الخلقية – زكريا إبراهيم ، ، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد .

(2) انظر :مبادئ الفلسفة – رابوبرت -.

(3) مقدمة في الفلسفة العامة – د. يحيى هويدي .

المبحث الثاني : حساب اللذات

لقد كان بنتام يأمل دائما في أن يجعل الأخلاق علما منضبطا تجريبيا شأنه في ذلك شأن العلوم التجريبية ، فجعل من مهمته (أن يضع المناهج التي تحول المبادئ النظرية إلى خطط عملية) و(أن يكتشف إلى أي حد وبأية طريقة يستطيع الإنسان أن يقيس اللذات قياسا كميا مضبوطا)[1] فقد كان معجبا أشد الإعجاب بالتطور العلمي في عصره وخاصة بقانون الجاذبية عند نيوتن ، فقال بأن مبدأ المنفعة والجاذبية متماثلان من حيث أن كلا منهما يتطلع إلى إقامة علم متكامل ، فالجاذبية ختام علم المادة ، والمنفعة إقامة علم للإنسان ،وإذا كان علماء الطبيعة قد أخضعوا الظواهر الطبيعية لمقاييسهم ، فلماذا لا يحتذي علماء الأخلاق حذوهم حتى يتحقق لموضوعاتهم الدقة التي تتميز بها الدراسات العملية ،وإذا كانت اللذة هي غاية الحياة الخلقية فكيف نخضعها للبحث العلمي ، وكيف نخضعها للقياس وأيها يلائم طبيعتها ؟ .[2]

ويعتقد لأجل الوصول إلى هذه الغاية أن يقوم الإنسان بحساب اللذات فهي التي تحول (علم الأخلاق وعلم التشريع إلى علمين مضبوطين كالرياضيات ، ويعول في التوحيد بين النفع الذاتي والنفع العام على الجزاء الطبيعي للفعل والجزاء القانوني والجزاء الاجتماعي) [3]

ومن هنا قال بنتام بحساب اللذات التي تجعل سلوك الإنسان منضبطا – كما يدعي – حيث يرى أنه (لكي يسلك الإنسان سلوكا حسنا يجب عليه أن يعد حسابا للذات والآلام ولقيمها النسبية ، يجب أن يكون قائد المرء في حياته حساب اللذات) [4]

ولكن كيف يتم حساب اللذات في فلسفة بنتام ؟

---

(1) مذاهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – د. توفيق الطويل ، .

(2) انظر : نفس المصدر ، .

(3) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم ، وانظر : مبادئ الفلسفة – رابوبرت .

(4) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة – أندريه كريسون .

يرى أن اللذة تقاس من خلال قوتها أو ضعفها ، وطول مدتها أو قصرها ، ويقينها أو احتمالها ، وكذلك قربها أو بعدها ، وخلوها من الألم أو اشتمالها عليه ، وعدد من تشملهم تلك اللذة .

اللذات من خلال نظرته النفعية تقاس من جهتين : الأولى صفاتها الذاتية ، والأخرى عواقبها الاجتماعية ، فالأولى يشترط فيها الشدة والمدة والثبات وقرب المنال والخصب والنقاء ، والأخرى شمولها لأكبر عدد ممكن من الناس . [1] وهذه الأمور السبعة هي معايير حساب اللذات عند بنتام ، والتي تخلص إلى أن يختار الإنسان من الأفعال ما يرجح لذتها على آلامها فإذا (خيرت بين جملة أعمال فاحسب حساب ما ينتج كل من اللذائذ والآلام ، فأيها زاد رجحان لذائذه على آلامه فهو الخير وهو الذي ينبغي أن يعمل) [2]

ولكن كيف تقاس اللذات المتنافرة ؟

هنا تحسم القضية من خلال المادة والنتائج الاجتماعية ، حيث تقيم اللذات بمبالغ تساويها ، فتقارن بأثمانها . [3]

---

(1) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – ، الأخلاق النظرية – د. عبد الرحمن بدوي ، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد ، مقدمة في علم الأخلاق – وليام ليلى .

(2) الأخلاق – أحمد أمين ، وانظر : الفلسفة أنواعها ومشكلاته – هنترميد ، تأملات في فلسفة الأخلاق – منصور علي رجب .

(3) انظر : مذاهب المنفعة العامة – د. توفيق الطويل .

تقويم

هل كان بنتام متماشيا مع الواقع من خلال معاييره التي تقاس بها اللذات والآلام ، وهل هي مما يوازن بينها من خلال الكم ، وهل معاييره السبعة أحصت جميع اللذات والآلام ؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات تظهر لنا بعد بنتام عن الواقع ، وقصور فلسفته النفعية عن تحقيق حلمه المادي .

فإذا استطعت حساب نسبة اللذات والآلام مع صعوبته فإنني (لن أستطيع أن أقدر هذه النسبة بالقياس إلى جميع الناس حين يكون على أن أحسب الآثار التي قد تنجم عن فعلي بالنسبة إلى الآخرين ، والواقع أنه ليس ثمة طريقة عملية ناجعة لحساب اللذات والآلام حتى من وجهة نظر شخصين فقط لا أكثر) [1]

يقول أحمد أمين : (إن هذا المذهب يدور حول اللذة والألم ويتخذ لذائذ الناس وآلامهم مقياسا ، ولكنا نرى أن اللذة والألم تختلف باختلاف الأشخاص ، فقد يرى أحد في عمل لذة كبيرة ويرى فيه أخر لذة أكبر أو أقل ، فيترتب على ذلك اختلاف الناس في الحكم بالخير أو الشر كما يترتب عليه ارتباك في حساب مقدار اللذة والألم) [2]

فالعمل الواحد ينظر إليه باعتبارات مختلفة ، فما هو نافع عندي ضار عند آخر ، فإلى أي شيء نحتكم - والحالة هذه - إذاً من (الصعب الوقوف على نتائج العمل وحسابها ، فقد نرى عملا ينفع أمتنا ويضر الأجانب ، وقد ينفع معاصرينا ويضر الأجيال المستقبلة ، والأجيال المستقبلة كثيرة العدد من أجل هذا ونحوه يصعب الحساب ويدق البحث حتى لا نستطيع أن نحكم على بعض الأعمال بأنها خير أو شر) [3]

الخطأ الذي لم يتداركه بنتام هو عدم تمييزه بين الفوارق الكيفية والكمية بين اللذات والآلام ، فلم يعن بناحية الكيف في حساباته ؛لأنها باختصار لا تقع تحت القياس ، وقد تنبه أرسطو إلى هذه النقطة ، فقال بالاختلاف الكمي والكيفي بين

---

(1) المشكلة الأخلاقية – د. زكريا إبراهيم .

(2) الأخلاق – أحمد أمين .

(3) نفس المصدر -.

اللذات ، فقد (فطن أرسطو قديما إلى ما فات بنتام حديثا من أن اللذات تختلف كيفا إلى جانب تفاوتها كما وهو رأي يتفق وفهم الناس لطبيعة اللذات إذ قرر أرسطو في دراساته السيكولوجية أن الأفعال الإنسانية التي تختلف نوعا لا يمكن إلا أن تقترن بلذات تختلف كيفا ، فعمل القوى العقلية يخالف عمل الحواس في كيفه ، بل تختلف أنواع كل منهما عن أنواع الأخرى ، ومن ثم تختلف اللذات التي تنشأ عنها .....ولو تساوت اللذات كيفا لكانت كلها خليقة بأن تزيد من وجوه النشاط الإنساني بغير تمييز ، ولكن التجربة تشهد ببطلان ذلك) [1]

حتى من الناحية الكمية الأمر كذلك من الصعوبة بمكان؛ لأننا لا نتمكن من تحويل اللذات إلى وحدات كمية ، ومن ثم يستحيل والحالة هذه قياس اللذات والآلام . [2]

(إن القيم الذاتية للذات لا يمكن أن تخضع للقياس الرياضي ، إذ كيف يتسنى لنا أن نحول شدة اللذة وعمقها أو صفاءها إلى أرقام دقيقة ؟ ثم إن مقارنة لذة بأخرى من نوعها وطبيعتها أمر عسير وأشد منه عسراً أن تكون الموازنة بين لذتين من طبيعتين مختلفتين كأن نوازن بين لذة حسية وأخرى عقلية أو فنية) [3]

بل الأمر يتعدي الاختلاف بين لذتين إلى الاختلاف حول طبيعة لذة معينة أو ألم محدد ، فهناك لذات تنتج ألما ، وآلام تنتج لذة ، فكيف نضبطها من خلال فلسفة بنتام ، وإلى أي تصنيف تصنف ؟ (ولنتأمل الآن الأعمال التي تنتج لذائذ ، وآلاما في أبعد نتائجها . إن هناك بعض لذات غير صافية تلك التي تثير ردحا من الزمن آلاما أكثر أو أقل حدة ، وهناك بعض آلام غنية بالفوائد تلك التي تكون نتائجها البعيدة طيبة الثمرات) [4]

---

(1) مذاهب المنفعة العامة – د . توفيق الطويل .

(2) انظر : المشكلة الخلقية – د. زكريا إبراهيم ، وانظر : تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم .

(3) مذاهب المنفعة العامة – د . توفيق الطويل -

(4) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة – أندريه كريسون - .

ونزوع بنتام إلى الناحية الحسية التي لا تتجاوز الواقع المعاش إلى ما ينبغي أن يكون تفقد قيمة المثل العليا من حياتنا ، وتجعلنا آلة حسية تجري وراء إشباع رغباتها (أليس في القول بمثل هذا الحساب النفعي إنكار لجوهر الحياة الخلقية باعتبارها سعيا وراء المثل الأعلى ، وجهدا إراديا تبذله الذات في سبيل العمل على تجاوز الواقع وتحقيق ما ينبغي أن يكون ؟) [1] (فعلم الأخلاق يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه الإنسان وماذا ينبغي أن يعمل ، وبأي شكل يشكل حياته) (وعلم الأخلاق يبحث في المقصد والغرض الذي ينبغي أن يكون ، والذي يحاول الإنسان أن يناله بأعماله وإليه يوجه إرادته وإن ما منحه من قوة الفكر العجيبة التي بها يستطيع أن يبحث في ماهية نفسه يؤهله للنظر فيما هو الغرض من وجوده ، ووضع قوانين وقواعد لسلوكه وأعماله وعد بعضها حسنا والآخر قبيحا ، ولابد من إعمال الفكر لمعرفة تلك القواعد ، ومجموع هذه الأفكار يسمى علم الأخلاق فهو يبحث في مصدر الأعمال والباعث عليها والمقصد منها وقوانينها ، يبحث في أعمال الإنسان الاختيارية ومصدرها وفي الحكم الأخلاقي والعواطف ومظاهرها في الحياة) [2]

إن حساب اللذات عند بنتام لا يمكن تحققه واقعيا لما يعتريه من تناقض وتجاوز للواقع ، وهذا ما جعل الفكرة لا تتجاوز التنظير الذي خطه الفيلسوف ، ولقد كان السابقون الذين أثروا عليه في القول بحساب اللذات [3] خيرا منه حالا حيث لم يقولوا بالحساب الكمي الذي أشار إليه بنتام . [4]

---

(1) المشكلة الخلقية – د . زكريا إبراهيم .

(2) مبادئ الفلسفة – رابوبرت ، .

(3) مثل أبيقور وأفلاطون.

(4) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم .

المبحث الثالث :المنفعة والسعادة

لاشك أن السعادة هي الغاية المرتجاة لكل إنسان لهذا ارتكزت عليها كل فلسفات الأخلاق ، ولكن اختلفت نظرتهم من مدرسة لأخرى ، فمن (الجلي أن مذهب السعادة مذهب يمكن أن يدخل تحته معظم المذاهب الأخلاقية الأخرى ، فإن الأخلاقي مهما كان مذهبه لا يمكنه أن يسلم بأن السلوك الخلقي الذي يدعو إليه يلزم عنه شقاء الناس أو إيلامهم كما أنه لا يمكن أن يصرح بعدم اكتراثه بالآثار الوجدانية التي يحدثها ذلك السلوك) [1] ونظرة بنتام للسعادة لا تنفصل عن مذهبه النفعي الذي جعل اللذة محورا لفلسفته الخلقية ، والنفعيون وحدوا بين المنفعة والسعادة ، ومن ثم أكد على أنه لا سعادة بدون لذة ، **فيقول:**

(السعادة بدون اللذات هذا وهم وتناقض إنها مليون بدون وحدات ، ومتر بدون تقسيمات مترية ، وزكيبة من الريالات بدون ذرة من الفضة) [2]

وما دام الأمر كذلك لابد أن يبحث الفرد عن لذته الشخصية أولا وقبل كل شيء ، فبنتام يصرح (بأن الغاية في مجال الحياة الخلقية هي السعادة : إن غاية كل كائن ناطق أن يحقق لنفسه أعظم مقدار من السعادة فكل امرئ أقرب إلى نفسه منه إلى غيره من البشر ، وليس في وسع أحد أن يقدر له آلامه ولذاته ، فنفسه لابد أن تكون بالضرورة أول ما يعنيه ، ولابد أن تكون مصلحته أول ما يشغل باله) [3]

ولكنه لا يعني بذلك أن تكون السعادة فردية لا تتخطى إلى المجموع ، بل يجعلها منطلقا إلى تحقيق السعادة العامة .لهذا كانت قاعدته في السعادة هي (أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الناس) [4]

---

(1) المدخل إلى الفلسفة - أزفلد كولبه .

(2) الأخلاق النظرية – د . عبد الرحمن بدوي .

(3) مذاهب المنفعة العامة – د . توفيق الطويل - .

(4) المدخل إلى الفلسفة – أزفلد كولبه ، وانظر :الأخلاق – أحمد أمين ، مبادئ الفلسفة – رابوبرت ، المشكلة الأخلاقية

ولكن هل يتحرك الشخص لإسعاد الآخرين إذا لم توجد له مصلحة ما ؟

بالطبع لا يتحرك الإنسان لإسعاد غيره طالما لا توجد له مصلحة ما ،وهذا يؤكد مدى حرص بنتام على المصلحة الشخصية . إن بنتام يحذرنا (من أن نتوقع من الآخرين أن يقوموا بعمل غيري لا مصلحة لهم فيه لا تحلم قط بأن الناس سيحركون خنصر أصابعهم لخدمتك إلا إذا كانت منفعتهم بتصرفهم هذا واضحة أمامهم ، إنهم لم يفعلوا ذلك قط ولن يقدموا على فعله في مقبل أيامهم طالما كانت طبيعتهم البشرية مصوغة من مادتها الراهنة ، ولكنهم يقبلون على خدمتك مختارين متى كان في ذلك تحقيق لخدمة أنفسهم ، وما أكثر الفرص التي يمكنهم فيها أن يخدموا أنفسهم من خلال خدمتهم لك) [1]

ولما يبدو من صعوبة في التوفيق بين مصلحة الفرد والمجموع اجتهد بنتام في الجمع بين المصلحتين من خلال فكرته عن الغيرية ، وهي إيثار مصلحة الآخرين والتعاطف معهم ، وبنتام بهذا (لم يطلب من الأنانيين أن يتخلوا عن أنانيتهم ، وإنما سعى إلى أن يطلب منهم أن يجعلوا أنانيتهم تفتح على الإيثار وذلك بتوسيع نطاق من تشملهم اللذة الشخصية) [2]

وعلى الفرد أن يتظاهر أمام الناس أنه لا يقيم لمصلحته الشخصية وزناً ، ولكنه لابد أن يدرك أن من مصلحته أن يكون بالفعل غيريا في تصرفاته فيتمسك بما سبق أن تظاهر به ويكون ذلك سجية له ، ومما يؤكد وقوع ذلك هو استبعاد الإنسان لعواطف الغيرة والتنافس ، وأن يحل محلها التعاطف والمودة ، فالإنسان اجتماعي بطبيعته . [3]

والفلسفية – أندريه كريسون ، المعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية هـ م ، .

(1) مذاهب المنفعة العامة – د . توفيق الطويل .

(2) الأخلاق النظرية – د . عبد الرحمن بدوي.

(3) انظر : مذاهب المنفعة العامة – د . توفيق الطويل - .

تقويم

القول بالمنفعة العامة لم يكن من ابتكار بنتام بل سبقه كمبرلند[1] ، وشافتسبري [2] . أما كمبرلند 1718 م (فكان في رأي البعض أول رائد حقيقي لمذهب المنفعة العامة ؛ لأنه كان أول من أكد الخير العام للجميع غاية عليا ومعيارا أسمى تقرر بمقتضاه جميع القواعد والفضائل ، وطالب كل إنسان عاقل بأن يقوم بخدمة غيره من الكائنات الأخرى حتى تتحقق سعادة الفرد والمجموع معاً ، وبهذا أضحى الخير العام قانون الأخلاق الأسمى ، وجاء شافتسبري 1713م فرفض أن يتصور الإنسان فردا منعزلا عن غيره من الناس ، وأوجب النظر إليه من خلال علاقته بمجموع يؤلف هو جزء منه .....وصرح شافتسبري بأن الرجل الخير هو الذي تتزن دوافعه وميوله بحيث يعمل على ترقية الخير للمجموع) [3]

وبالنظر إلى فلسفة بنتام في السعادة المعتمدة على اللذة يتبين لنا أنه أغفل المقاصد والنوايا ، وركز فقط على تحقيق اللذة .

إن الفعل الإنساني مسبوق بنية متجهة نحو مقصد ما بالطبع السعادة جزء منه ولكن ليست هي عينه .

ولكن السعادة عند بنتام هي الغاية ، وجعل كل القيم والدولة والقانون أداة لتحقيق هذه الغاية دون أدنى اهتمام بالمقاصد أو النوايا . [4]

---

(1) ريتشارد كمبرلند – م فيلسوف إنجليزي ، وأسقف بيتربورو ، كان مروجا للنفعية ، ومعارضا لأنانية هوبز . انظر : موقع ويكيبديا على الشبكة العنكبوتية ar.wikipedia.org/

(2) لورد شافتسبري – م وقف موقفا وسطا بين الحسيين والعقليين في الأخلاق ، فرأى أن في الإنسان ميولا اجتماعية طبيعية وعواطف لا إرادية . انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم .

(3) مذاهب المنفعة العامة – د . توفيق الطويل .

(4) المشكلة الخلقية – د . زكريا إبراهيم .

(اللذة لا يمكن أن تعد غاية نهائية لكل أفعالنا ، وإنما هي مجرد ظاهرة مصاحبة لعملية ممارسة نشاطاتنا بطريقة سوية ناجحة ، فكذلك يمكن القول أيضا بأن السعادة ليست غاية حياتنا ، بل هي مجرد ظاهرة مصاحبة لعملية نهوضنا بواجباتنا في شتى مواقف حياتنا الخاصة على نحو مرضي ناجع ....وفضلا عن ذلك فإنه لو وضع كل فرد منا نصب عينيه دائما الحصول على السعادة لنشأ من جري الأفراد وراء هذا الهدف ضرب من الصراع أو التعارض ألسنا نلاحظ أنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تتشابك مصالح الأفراد فيكون تحقيق الواحد منهم لسعادته الخاصة على حساب سعادة الآخرين ؟ بل ألا تظهرنا التجربة أحيانا على أن طلب السعادة قد يخلق في نفس الفرد نوعا من الأنانية أو الأثرة فيغلب منفعته على منفعة الآخرين مخالفا بذلك ما تقضي به قوانين العدالة ؟) [1]

مشكلة التوفيق بين المصلحتين الخاصة والعامة :

إن بنتام ومعه أغلب النفعيين قد تضاربوا في أقوالهم ، إذ كيف نوفق بين مصلحة الفرد مع ما فيها من أنانية بالغة ، ومصلحة المجموع التي توجب التنازل عن تلك الأنانية ، فـ (مشكلة التوفيق بين المصلحتين قد حيرت النفعيين ورطوا أنفسهم حين ربطوا بين مصلحة المجموع ومصلحة الفرد ، وزادوا ورطتهم حين أقاموا نفعيتهم الأخلاقية على أساس من مذهب اللذة السيكولوجي) [2]

والسعادة الفردية تؤدي إلى صراع بين الأفراد ليظفر كل واحد منهم بسعادته الشخصية فقط ، ولا يستقيم أبدا مع هذا الصراع تحقيق المصلحة العامة . [3]

ومفهوم الغيرية الذي أشار إليه بنتام لا يتسق مع الأنانية ، فهما ضدان لا يجتمعان ، فالأثرة هي ما يتفق والأنانية لا الإيثار الذي تمثله الغيرية ومن هنا نتساءل (ما هذا الشمول الذي أدخل به بنتام الغيرية في تعريف الأنانية لقد وقع بنتام في خطأ سيكولوجي حين اعتبر الشمول – أي امتداد اللذة للآخرين – من بين المقاييس التي تقوم به اللذات تقويما كمياً ، أي أن شعور الإنسان باللذة يزداد بمقدار عدد من تصيبهم من ناس ، ولكن هذا غير صحيح في كل الحالات

---

(1) نفس المصدر [illegible] .

(2) مذاهب المنفعة العامة – د. توفيق الطويل [illegible] .

(3) انظر : نفس المصدر [illegible] .

، فقد يسعد الإنسان مجموعة من الناس على حساب سعادته ، ومن ثم يكون في إسعاده للآخرين شقاؤه) [1] و (الواقع أن الطبيعة البشرية تجمع بين نزعات الأثرة والإيثار ، ومن الخطأ ردها إلى الأنانية الموغلة وحدها أو الغيرية الطاغية وحدها ، وعن النزاع بين هاتين النزعتين ينشأ الموقف الخلقي وتبدو آثار الغيرية الأصيلة في فطرة البشر جلية في السلوك الذي يقوم على مشاركة الإنسان لغيره وجدانيا وعطفه على المحتاج وإشفاقه على المريض ...من غير أن يريد من وراء هذا جزاء ولا شكورا .....ولكن بنتام ينظر إلى هذا التعاطف الوجداني من خلال الأثرة فلا يعنيه منه إلا أنه يزيد شعور الإنسان بلذته) [2]

السعادة ليست شخصية أو مادية فحسب بل هي اسم جامع يجمع بين سعادة الفرد والمجموع ، الروح والبدن ، وهذه النظرة المتزنة أشار إليها مسكويه[3] بقوله (سعادة الإنسان تكون في صدور أفعاله الإنسانية عنه بحسب تمييزه ورويته) والسعادة هي (خير ما ، وهي تمام الخيرات وغاياتها ، والتمام هو الذي إذا بلغنا إليه لم نحتج معه إلى شيء آخر فلذلك نقول إن السعادة هي أفضل الخيرات ، ولكنا نحتاج في هذا التمام الذي هو الغاية القصوى إلى سعادات أخرى وهي التي في البدن والتي خارج البدن) (وينبغي أن يعلم : أنه لا يحتاج في صحة

---

(1) نفس المصدر ▯▯▯ - ▯▯▯ .

(2) نفس المصدر ▯▯▯ -▯▯▯ .

(▯) مسكويه توفي ▯▯▯ هـ ▯▯▯▯م أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، أبو علي: مؤرخ لغوي طبيب له مذهب فلسفي في الأخلاق ، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها. من أهم كتبه : تجارب الأمم وتعاقب الهمم - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق - الفوز الأصغر . انظر : الأعلام – الزركلي ▯▯▯/ ▯▯▯-▯▯▯ ، الموسوعة الفلسفية المختصرة – فؤاد كامل ▯▯▯.

الأرواح الطيبة المستغنية عن الأبدان إلى شيء من السعادات البدنية ...سوى سعادة النفس فقط أعنى المعقولات الأبدية التي هي الحكمة فقط) [1]

ومن ثم نؤكد على أن بنتام لم يستطع التوفيق بين المصلحتين كما كان يأمل ، بل وقع في التناقض الذي يستحيل الجمع بين طرفيه .

وكذلك وقع بنتام في خطأ حينما ربط بين المنفعة والسعادة ، فلا شك (في أن كثيرا من الأمور نافعة مع أنها لا تجلب للناس شيئا من السعادة ، مثال ذلك المخترعات الميكانيكية العديدة ، وبعض طرق المواصلات الحديثة ، وبعض أنواع التقسيم في العمل وغير ذلك) [2]

---

(1) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – لابن مسكويه ، ، .

(2) المدخل إلى الفلسفة – أزفلد كولبه .

المبحث الرابع : قيمة الواجب عند بنتام

من خلال بحث النفعيين عن اللذة بمختلف صورها لا يتصور منهم أن يعتدوا بالواجب الأخلاقي ، وليتماشى بنتام مع مذهبه النفعي حمل حملة عنيفة على ألفاظ الواجب والإلزام وما ينبغي أن يكون لمنافاتها لمبدئه النفعي العام ، فعنده (ينبغي أن تختفي كلمة ينبغي من قاموس الأخلاق ، وبمثل هذا يهاجم بنتام غير هذا من مصطلحات الأخلاق التي نفرت الناس من الاعتراف بسيطة اللذة والألم عليهم وأثرهما في تشكيل السلوك الإنساني ، فيحمل على لفظ الإلزام ...الذي يفيد التقييد . من سلطة المتكلم المتعجرف نبتت هذه الكلمة وتجمعت حولها سحابة من ظلمة الغموض والإبهام) [1]

ويقول :

(إن أكبر ما يعوق اعتراف الإنسان بسيادة اللذة والألم وهيمنتها على سلوكه هو تأثره بالعبارات الخلقية التي اخترعها فيلسوف الأخلاق للتعبير عن أفكاره المتعسفة) [2]

بل يؤكد أن الحديث عن الواجبات نوع من أنواع العبث ، وضرب من الغموض نسجه فلاسفة الأخلاق الذين لا يعملون بما يقولون ، فلا يعملون إلا بما يحقق مصالحهم الخاصة ، وهذا الواجب هو الذي يحول دون اعتراف الإنسان بأثر اللذة والألم في سلوكه . [3] لقد كان بنتام متفقا تماما مع النفعيين الذين سبقوه في القول بالأنانية وحصر السعادة في تحصيل اللذة وتجنب الألم ، والواجبات في مجملها يبتعد الناس عنها في إصرار.[4]

ومن هنا فلا اعتراف عنده بأثر الدين أو العادات أو الضمير الإنساني ، فالخير والسعادة قاصران على تحقيق اللذة وتجنب الألم ، ومن ثم يصبح أي مصطلح

---

(1) مذاهب المنفعة العامة – د. توفيق الطويل ، وانظر : الأخلاق النظرية – د. عبد الرحمن بدوي.

(2) نفس المصدر .

(3) انظر : نفس المصدر -.

(4) انظر : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة – أندريه كريسون -.

غير نفعي أداة من أدوات الطغيان والاستبداد ، فلقد (رأى أن أي مبدأ تجريدي غير نفعي إنما هو أداة من أفضل أدوات الطغيان وأشدها فعالية فهو يفيد في إقناع الضحايا بأن إطاعتهم للمستبدين بهم ليست ضرورية فحسب ، بل هي واجبة بحق) [1]

يستوي في ذلك العقائد الدينية والأعراف والعادات ، وما يكن الإنسان في نفسه من خير بعيد عن نفعية بنتام (ولا يمنع من الإقرار بهذا المبدأ [أي المنفعة] سوى الأحكام المتواترة وبنوع خاص العقائد الدينية) [2] لأنه (لا يكترث لها كثيرا ، بل صرح بأنه لا يعرف شيئا عن طبيعة نعيم الآخرة أو جحيمها – لذاتها وآلامها؛ لأنها لا تخضع لمشاهداته ، فساير بهذا نزعته الحسية الواضحة) [3]

بإلغاء فكرة الواجب أصبح كل إنسان غير مقيد بأي شيء ، ففعله تابع للذاته ، فكيف نلزم الفرد بتحقيق مصلحة المجموع ،وهي المسألة التي دافع عنها بنتام كثيرا ، وجعلت البعض يعتبره رائداً للنفعية العامة ؟

هنا يجيب بنتام بأن الجزاءات هي التي تحقق المصلحة العامة ، فقد (وجد أن نظام العقوبات هو الذي يحتم على الفرد – الأناني بطبعه – أن يعمل لمصلحة المجموع) [4]

---

(1) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد .

(2) تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم ، وانظر : مقدمة في علم الأخلاق – د . محمود زقزوق .

(3) مذاهب المنفعة العامة – د . توفيق الطويل .

(4) نفس المصدر ، وانظر : .

تقويم

لقد ساير بنتام بالفعل نزعته المادية إلى أقصى حد بتحييده الدين عن الحياة ، وعلى رأسها توجيه السلوك الإنساني ، وهذا ما يردده العلمانيون ومن سار على دربهم ممن ينزعون إلى فصل الدين عن الحياة .

وفلسفتهم النفعية تلك تجعل الإنسان عاجزا عن مقاومة نزواته ، والحق أن مبدأ المنفعة في ذاته يتنافى تماما مع مبدأ الواجب ، فالواقع يؤكد أن : (إشباع ميولنا ورغباتنا كثيرا ما يتنافى مع مبدأ الواجب ويصطدم مع أبسط قواعد الأخلاق التقليدية ، ومن هنا تعذر إقامة مذهب اللذة الأخلاقي على أساس من مذهب اللذة السيكولوجي ، وقد قيل بحق إن الطريقة الوحيدة للشعور باللذة هو نسيانها وليس تركيز الانتباه فيها ، فكلما قل تفكيرنا في اللذة ازداد شعورنا بها) [1]

إلغاء فكرة الواجب كما يريد النفعيون يجعل الإنسان مساويا تماما للحيوان والجماد ، فالإنسان له ضميره وعاداته ودينه الذي يوجه سلوكه (فالتعبير بما ينبغي أن يكون لا يطلق على حياة الجماد ولا الحيوان ، فإذا تنازلنا عن هذا التعبير في تقييمنا للسلوك الإنساني لكنا بذلك نلغي الجانب الإنساني من طبيعتنا ونسوى بين الإنسان والحيوان) [2] والحق (أن في الإنسان صوتا باطنا يوحي إليه بما ينبغي أن يفعل ويميز به بين الحق والباطل ، والحسن والسيئ ، والنافع والضار والأخلاقي وغيره ، ويسمى هذا الصوت بالوجدان ، وهو نوع من الشعور الباطني ليس يخضع لسلطان خارجي ، وهذا الشعور هو الذي كان يحمل الناس على السير في طرق خاصة قبل أن تبحث النظريات الأخلاقية بحثا فلسفيا بأزمان طويلة ، وهو ناشئ إما من غريزة في الإنسان ، وإما من المعتقدات الدينية ، وإما من أحكام تواضع بعض الناس عليها وقرروا العمل بها لما رأوا فيها من الخير والمنفعة العملية لهم ، ثم أجبر الناس على العمل بمقتضاها وصارت فيما بعد عرفا وعادات وأصبح العمل على وفقها أخلاقيا ، وانتهاك حرمتها مخالفا للأخلاق) [3]

---

(1) نفس المصدر ، وانظر : مقدمة في علم الأخلاق – د. زقزوق .

(2) مقدمة في علم الأخلاق – د . زقزوق ، وانظر : الأخلاق – أحمد أمين - .

(3) مبادئ الفلسفة – رابوبرت - .

وليس المصلحة هي الدافعة إلى سلوك معين فحسب ، بل هناك العاطفة والشعور أيضا يعملان ذلك . [1]

الضمير والعرف والدين كل هذا لا يعتد به في نظر بنتام ، ولكنه يدرك تماما قيمة الواجب في توجيه سلوك الإنسان ، ومن ثم استعاض عنه بعمد أو غير عمد عنه بقانون العقوبات الذي يلزم الأناني بالعمل لصالح المجموع أليس هذا الفرض من قبيل الواجب ؟

وكيف يحل بنتام مشكلة غياب الرقيب الخارجي – الجزاءات والقوانين – عن الفرد الذي ينتهز أي فرصة لتحقيق لذته حتى لو على حساب الآخرين ومن هنا نقر بكل وضوح أن الواجب الذي استبعده بنتام المادي هو الجدير وحده بضبط سلوك الإنسان عند غياب هذا الرقيب القانوني .

لهذا لم يعن التجريبيون بالباعث والدافع بقدر اعتنائهم بنتائج الأفعال (الواقع أن هذا الموقف الذي وقفه بنتام والتجريبيون من ورائه يؤدي إلى الخلط بين العدالة والأخلاقية ، إن القاضي لا يستطيع أن يكشف في ضمير المجرم عن بواعث إجرامه من هنا كان اهتمام المشرعين بنتائج الأفعال دون بواعثها وإن كان للقاضي أن يجعل من الباعث عاملا في تقدير العقوبة أما الأخلاق فإنها تتجاوز ما تقتضيه العدالة إلى استفتاء الضمير والكشف عن بواعث الأفعال عند أصحابها ، ولكن بنتام كان مشرعا قبل أن يكون فيلسوف الأخلاق ، وإخلاصه للنزعة الواقعية جره إلى إغفال الضمير مدبرا للأفعال الإنسانية ومرجعا للأحكام الخلقية ... أما فلسفة الأخلاق فإنها تطمع في جعل الإلزام الخلقي باطنيا ذاتيا وليس خارجيا) [2]

ولنتساءل : أي سلطة يخضع لها مقياس المنفعة الذي كرس بنتام له فلسفته الأخلاقية (هل هي سلطة الواجب وسلطة العقل أم سلطة المنفعة العامة ؟ لو أجاب بنتام بأنها سلطة العقل والواجب لخرج عن كونه نفعيا بل يكون واجبيا ، ولو ادعى أنها سلطة المنفعة العامة فهي من الناحية الأخلاقية لا سلطة لها على الفرد؛ لأن كل فرد بالطبع إنما يخضع لمنفعته الخاصة أما المنفعة العامة فهي تضحية والتضحية ثقيلة على النفس ، ولولا الضمير وسلطة الواجب ما سأل

---

(1) انظر : نفس المصدر ، مقدمة في علم الأخلاق – د. زقزوق .

(2) مذاهب المنفعة العامة – د. توفيق الطويل ، وانظر : ، مقدمة في علم الأخلاق – د. زقزوق .

أحد عن المنفعة العامة ، فالمنفعة العامة إذن مقياس لا سلطة له على الروح ، وكل مقياس هذا شأنه فهو في الأخلاق لا قيمة له) [1] لقد جعل السعي وراء المنفعة - دون القيمة - من الإنسان في العصر الحديث عبدا للمنفعة نابياً عن القيم الأخلاقية ، فقد تناسى النفعيون (أن النافع لا يكون نافعا إلا بالقياس إلى شيء ذي قيمة في ذاته يكون هو بمثابة أداة أو وسيلة تفضي إليه ، ولعل هذا هو السبب في أن الرجل الحديث قد أصبح مجرد عبد للمنفعة فهو يجري وراء اللذات ويسعى وراء المنافع دون أن يفكر في الغاية التي يلتمسها من وراء تلك المنافع أو اللذات ، ولا غرو فقد أصبح إنسان العصر الحديث مفتقرا تماما إلى الإحساس بالقيم) [2]

ذلك لأنهم جعلوا الحياة الخلقية عملية سعي مستمرة وراء الوسائل المؤدية إلى المنفعة دون النظر إلى الغايات التي تكمن وراء تلك الوسائل . [3]

إن فلسفة بنتام النفعية ، وإنكاره للواجب الأخلاقي تجعلنا دائما حبيسي الواقع بآلامه وعدم مجاوزته إلى البحث فيما ينبغي أن يكون ، فقد (انتهى إلى إخضاع الأخلاق لمناهج الاستقراء وحدها ، فأنكر على الأخلاقيين أن يتجاوزوا البحث فيما هو كائن إلى دراسة ما ينبغي أن يكون ، وأن يتخطوا النظر في الواقع الأليم إلى البحث في المثل الأعلى للسلوك الإنساني ... فلسفة الأخلاق لا تقنع بهذه الدراسة التجريبية ، ولا تستقيم بغير التطلع إلى مثل إنساني أعلى يسير بمقتضاه سلوك الإنسان ، فمن الضلال أن تنتهي بنا دراستنا للواقع – كما انتهت ببنتام – إلى مهاجمة الالتزامات والواجبات التي ينبغي أن يقوم بها الإنسان أو الاستخفاف بالمثل العليا التي تعبر عن مطامح الإنسان بما هو إنسان) [4]

---

(1) مقدمة في علم الأخلاق – د . زقزوق .

(2) المشكلة الخلقية – د. زكريا إبراهيم ، وانظر : – قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية – د. سعد الدين صالح - .

(3) انظر : مقدمة في علم الأخلاق – د. زقزوق .

(4) مذاهب الفلسفة العامة – د . توفيق الطويل - .

المبحث الخامس : اللذة والسلوك الإنساني

لقد جعل بنتام من اللذة مطلبا أساسيا وغاية قصوى يجب على الإنسان أن يصل إليها ، ويشبع من خلالها رغباته وشهواته إشباعا تاما ، فاللذة هي الخير الوحيد ، وعلم الأخلاق يدور في فلكها بعيدا عن المثل العليا وما ينبغي أن يكون .

فاللذة (هي الخير الوحيد كما يصبح الألم الشر الوحيد في حياة الإنسان ويتحول علم الأخلاق إلى علم حساب لتقدير ما ينجم عن الأفعال من لذات وآلام) [1]

يقول بنتام : (ما الفضيلة ؟ إنها ما يسهم في مزيد من السعادة ، وما يكثر من اللذات ويقلل من الآلام ، والرذيلة – بعكس ذلك – هي ما يقلل من السعادة ويسهم في الشقاء) [2]

ويقسم اللذة إلى بسيطة ومركبة الأولى لم يكن لها جزء قائم بها ، والأخرى تتجزأ إلى جملة لذائذ أو آلام يمتاز بعضها عن بعض . [3]

واللذة والألم هما الباعث للإنسان على العمل . يقول بنتام : (خلق الإنسان محلا للذة والألم وجميع أفكاره راجعة إلى هذين الأمرين ، وكل الأعمال منبعثة عنها ، ومن ادعى أن لا سلطان لها عليه فهو جاهل لا يدر ي ما يقول؛ لأنك تراه لا يتباعد عن اللذة إلا لنوال اللذة ، ولا يتجشم الآلام إلا ليتجنب الآلام تلك إحساسات فطرية لا يتسنى لواحد من الناس أن يقاومها وبحث الأديب وواضع القانون يجب أن يكون موجها إليها ، وأصل المنفعة يرجع كل شيء إلى اللذة والألم الناشئين عن تلك الإحساسات) [4]

في هذا النص يقرر بنتام أن الآداب والقوانين في حاجة ماسة إلى التعرف على اللذائذ والآلام ويؤكد أيضا أنه بدون معرفتها يصبح الدليل القانوني مبهما لا ينتج شيئا .

---

(1) نفس المصدر ☜☜- ☜☜ .

(2) الأخلاق النظرية – د ز عبد الرحمن بدوي ☜☜.

(3) انظر – أصول الشرائع – بنتام ☜ /☜☜ -☜☜ .

(4) نفس المصدر ☜ /☜☜ .

(يقول نفسه عن هذا الحصر إنه ليس عقيما ، بل فائدته كبيرة ، فإن الآداب والقوانين قائمة على معرفة اللذائذ والآلام . إن هذه المعرفة هي الأصل الذي منه يصل الباحثون إلى الأفكار السديدة التي لا شبهة فيها ولا خفاء ، ولقد بلغ من تقديس بنتام لهذا الباعث أن اعتبر أي دليل في الآداب والقوانين لا يترجم بلذة أو ألم فهو دليل مبهم سفسطي لا ينتج شيئا) [1]

ولم ينس بنتام نزعته المادية في دراسته الأخلاقية حيث فسر قيمة اللذات تفسيرا تجاريا بحتا فقال : (إذا كانت النقود هي الأداة الجارية للذة ، فمن الواضح بالتجربة القاطعة أن كمية اللذة الفعلية تتبع في كل حالة معينة – وفقا لهذه العلاقة أو تلك – كمية النقود ...والمقياس المشترك الوحيد الذي تقبله طبيعة الأشياء هو النقود كم تعطى من النقود لشراء هذه اللذة ؟ خمسة جنيهات لا أكثر . وكم من النقود تعطي لشراء تلك اللذة الأخرى ؟ خمسة جنيهات لا أكثر . إذن هاتان اللذتان هما في نظرك متساويتان) [2]

ومن هنا يرى أن التفاوت في الثروة يقابله تفاوت في أسباب السعادة ، فالأكثر مالا أسعد حظا . [3]

فاللذة واللذة وحدها هي الغاية من كل سلوك إنساني ، وهي المحددة لطبيعة القوانين والأخلاق الإنسانية .

---

(1) تأملات في فلسفة الأخلاق – منصور علي رجب .

(2) الأخلاق النظرية – د. عبد الرحمن بدوي .

(3) انظر : مذاهب الفلسفة العامة – د . توفيق الطويل .

تقويم

إن اللذة ليست مطلبا في ذاتها ، فهناك قيم أخرى يجب الالتفات إليها يسعى الناس دائما للحصول عليها ، فحصر بنتام القيم على اللذة وحدها ليس في موضعه .

(فأقل ما يمكننا أن نقوله في الرد عليه هو أن هناك قيما أخرى غير اللذة طالما سعى البشر في سبيل الحصول عليها وإن التجربة نفسها لتظهرنا على أن الناس ينشدون أشياء أخرى كثيرة غير الرفاهية بدليل أنهم يلتمسون المعرفة ، ويتطلبون الثقافة ، ويقدرون الذوق ، وينشدون الجمال ....الخ ، وليست هذه جميعا مجرد ملذات بل هي غايات قد لا يكفي للحصول عليها تقدير حساب الآلام واللذات) [1]

والحق أن اللذة أداة لغاية تسمو عليها ، وهذا ما يؤكده الواقع وتشهد له التجربة ، فاللذة (لا تطلب إلا لتكون أداة لغاية تسمو عليها ، ولا ينشدها الإنسان غاية قصوى لكل فعل يأتيه ، وقد كانت الأثرة شريعة الغابة ، ولكن الحضارة الإنسانية قد قضت أن تقوم الأفعال الإنسانية على أساس من البذل والإيثار ، وإن لم تطمع في إلغاء الأنانية من حياة الإنسان) [2]

كذلك تحصيل اللذة يفتقر إلى معيار حاكم يضبط سلوك الناس ، فالأشخاص يسعون إلى تحقيق ملذاتهم ، فأي معيار يضبط سلوكهم إذا تعارضت تلك اللذات ؟ إن (مذهب المنفعة يقضي بأن كل واحد من الناس ينصب نفسه حكما في منفعته فإذا تعاقد مثلا مع غيره ، ثم رأى بعد ذلك ألا منفعة له من هذا العقد عدل عنه ، وكان في عدوله مصيبا ، وهذا يجر إلى خلق المشاكل ، واضطراب الأمن) [3]

وطبيعة اللذة تؤكد أنه ينبغي مصاحبتها لغايات أخرى آية ذلك إذا أمعن الإنسان في تحقيقها فإنه وبلا شك سيفقد الشعور بها .

---

(1) المشكلة الخلقية – د . زكريا إبراهيم .

(2) مذاهب الفلسفة العامة – د . توفيق الطويل ، وانظر : مقدمة في علم الأخلاق – د . زقزوق

(3) تأملات في فلسفة الأخلاق – منصور على رجب .

يرى **سدجويك** [1] أن التفكير في اللذة يفقد الشعور بها لذا يجب أن نتجه برغباتنا إلى تحقيق غايات موضوعية حينئذ يمكن أن نشعر باللذة وقد تجلت لنا فجأة . [2]

والتجربة شاهدة على أن الناس لا ينشدون اللذة وحدها ، فالناس يقدمون على أفعال يعرفون أنها تثير آلامهم ، فاللذة كما يرى أرسطو ظاهرة مصاحبة لشيء آخر،ووضع اللذة غاية قصوى لأفعال الإنسان خطأ واضح ، وتطلع الإنسان إلى مثل أعلى يجعله متميزا عن باقي الكائنات . [3]

والنتيجة أن الاستغراق في اللذة يؤدي إلى الألم الذي حاول بنتام الهروب منه ، فينهدم من ثم صرح بنتام النفعي عند فوات تلك الغاية المأمولة فـ (استهداف اللذة مباشرة يؤدي عادة إلى أن تفوتنا اللذة والدليل الذي يساق في هذا الصدد هو التعاسة الملحوظة التي يشعر بها محترف السعي إلى اللذة) [4]

ويقول مسكويه : إن (تلك اللذات حسية تنصرم وشيكا وتملها الحواس سريعا ، فإذا دامت عليها صارت كريهة ، وربما عادت مؤلمة) [5]

ويقول : (من رضي لنفسه بتحصيل اللذات البدنية ، وجعلها غايته وأقصى سعادته فقد رضي بأخس العبودية لأخس الموالي) [1]

---

(1) هنري سدجويك - م فيلسوف إنجليزي أستاذ بجامعة كيمبردج منذ عام م حتى وفاته . كتب في الاقتصاد والفلسفة وأول رئيس لجمعية البحث في الروحانيات . من أهم كتبه : منهج علم الأخلاق حاول فيه التقريب بين عدة مواقف متعارضة ، فهو نفعي ومن القائلين بنظرية الواجب ، وأناني ومن القائلين بمبدأ التعميم انظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة – فؤاد كامل وآخرون – .

(2) انظر : المجمل في تاريخ علم الأخلاق – د . هـ . سدجويك .

(3) انظر : مقدمة في علم الأخلاق – د . محمود زقزوق.

(4) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد .

(5) تهذيب الأخلاق – مسكويه.

والمشاهد أن الممعنين في اللذة يقدمون إما على الزهد أو الانتحار ، فكيف تكون اللذة غاية في ذاتها ؟

فلو (أن اللذة كانت الغاية القصوى من وجودنا لكان علينا أن ننشدها في كل مظانها ، وأن نلتمس المزيد منها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، ولو فعلنا هذا لنجمت عنه آلام ، وكانت عواقب الاندفاع شرا محققا ، وقد رأينا كيف انتهى الذين استجابوا لهذه الدعوة إلى الزهد حينا وإلى الانتحار حينا آخر) [2] ولو (كان الباعث هو اللذة لكان الاستغراق فيها يقويها والمشاهد العكس) [3]

وبإمعان النظر في كلام بنتام للذة يتبين أنه لم يخرج عن الأنانية حيث دعا إلى عدم تخلي الشخص عن لذته لحساب الآخرين ، ومن هنا نؤكد أنه وقع في التناقض ، إذ كيف نوفق بين الأنانية وتحصيل السعادة للمجموع التي جعلها أساسا لمذهبه في المنفعة ؟

إن بنتام لم يخرج (عن الأنانية السائدة في تصوره لمذهب المنفعة؛ لأنه يشترط في هذه الخاصية ألا تنطوي على تضحية من جانب الشخص للآخرين ، فإن استمتع الشخص بلذة وشاركه الآخرون في هذا الاستمتاع دون أن يكلفه ذلك شيئا فهذا أفل مما لو قصرها على نفسه) [4]

ولكن التجربة تشهد بأن (الأخلاقية قد تقوم في إعراض الإنسان عن لذته لشخصيته ومصلحته الفردية ، بمعنى أن الموقف الخلقي ينشأ عندما يتعارض العقل مع الهوى ويتنازع الواجب مع الشهوة وتصطدم الغيرية بالأثرة ويتمشى هذا الموقف مع الأخلاقية يوم تكون الغلبة لنداء العقل أو صوت الضمير أو نحو ذلك ، فليست اللذة هي التي تجعل الأفعال الإنسانية متمشية من الأخلاق ، بل إن الأخلاقية هي التي تبيح بعض اللذات أحيانا) [5]

---

(1) نفس المصدر.

(2) مذاهب الفلسفة العامة – د . توفيق الطويل .

(3) تأملات في فلسفة الأخلاق – منصور علي رجب .

(4) الأخلاق النظرية – د . عبد الرحمن بدوي ، وانظر : مذاهب الفلسفة العامة – د . توفيق الطويل .

(5) مذاهب المنفعة العامة – د . توفيق الطويل.

أما عن تحويل بنتام قيمة اللذة إلى مال ، فلنا أن نتساءل : كيف نحول اللذات المتنافرة إلى قيمة مادية ؟ إن هذا الأمر لا يمكن تحققه في السلوك الإنساني الذي أراد أن يجعله في دقة التجارب العملية ، ولكن محاولته باءت بالفشل .(تحول قيم اللذات المتنافرة إلى مال ليس بالأمر الهين اليسير إذ كيف يتيسر لنا أن نحول لذة الإحسان إلى فقير أو العطف على مريض إلى قيمة نقدية دقيقة ؟ إن تحويل الكيفيات إلى كميات ممكن في الظواهر الطبيعية ، ولكنه مستحيل أو يكاد يكون ضبطه مستحيلا في المشاعر والوجدانات من هنا فشلت محاولته) [1]

من خلال هذا القصور الذي يعتري اللذة باعتبارها مطلبا أساسيا وغاية قصوى للسلوك الإنساني يتبين لنا أن هذا المذهب مذهب ضيق لا يتسع لجميع الأفعال الخلقية .

يقول أزفلد كولبه[2] :

(ليست اللذة .. على إطلاقها هي الغاية من السلوك الخلقي ، ولكنها لذة خاصة تطلب في ظروف خاصة والأمر كذلك في المنفعة والسعادة أي أنه لابد من وضع حدود أو شروط يجب توافرها في اللذة والمنفعة والسعادة لتكون غاية خلقية ويلاحظ فوق ذلك أن مذهب المنفعة ضيق؛ لأنه لا يتسع لجميع الأفعال الخلقية) [3]

---

(1) نفس المصدر.

(2) كولبه - م فيلسوف وعالم نفس ألماني حاضر في بون وميونخ في المنطق وعلم النفس والفلسفة . من أهم كتبه : أساس علم النفس – فلسفة الزمان الحاضر – محاضرات في المنطق . انظر : موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب – روني إيلي ألفا / .

(3) المدخل إلى الفلسفة – أزفلد كولبه.

المبحث السادس : الإسلام والمنفعة

قبل أن نختم الحديث نود أن نشير إلى نظرة الإسلام إلى المنفعة من خلال الإجابة على هذه التساؤلات .

هل يحرم الإسلام على المسلم التمتع بالنافع له ؟ وهل يكتفي بالناحية المادية فحسب مهملا ما عداها أم ينظر إلى الإنسان نظرة متكاملة ؟ هل سعادة الإنسان ذاتية أم عامة ، وأيها يقدم ؟ هل الإسلام يعتمد على الحسابات النفعية ؟

إن الإسلام لا يحرم على الإنسان التمتع بالطيبات على اختلاف أنواعها ، بل جعلها من الأمور الضرورية التي لا يستغني عنها .

قال تعالى " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّـهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " (1)

وقال سبحانه "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّـهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " (2)

وتميزت نظرة الإسلام إلى الإنسان بالشمولية ، حيث لم تفرق بين روحه وجسده ، ولم ترفع من جانب على حساب آخر ، فتعاملت معه بتوازن وإحكام ، فالحاجات (الحسية الأساسية في الإنسان - مثل المأكل والمشرب والجنس والملبس والمسكن وما إلى ذلك – فهي ضرورية أيضا لدوام الحياة أولا وللشعور بالسعادة ثانيا ، ولهذا فقد أباح الإسلام كل ما يحتاج إليه الإنسان بالضرورة ، وحرم كل شيء يضر بالصحة) (3)

(وصلة تحقيق الحاجات بالأخلاق أن حرمان الإنسان نفسه من حقه ظلم كظلم غيره ، والظلم مناف للأخلاق) (4)

ولكن ينبغي الأخذ منها بوسطية واعتدال بلا غلو أو تقصير .

---

(1) الأعراف .

(2)المائدة .

(3) علم الأخلاق الإسلامية – مقداد يالجن محمد علي .

(4) نفس المصدر

قال تعالى " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " [1]

وقال سبحانه " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا"[2]

وفي الحديث ((كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة)) [3]

قال الموفق البغدادي[4] رحمه الله : (هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة فيؤدي إلى الإتلاف ويضر بالنفس إذ كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العجب وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم وبالدنيا حيث تكسب المقت من الناس) [5]

---

(1) الأعراف .

(2) الإسراء .

(3) صحيح البخاري – النسخة المختصرة تحقيق د . مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير – بيروت – ط / هـ أول كتاب اللباس / .

(4) الموفق البغدادي - هـ عبد اللطيف بن يوسف بن محمد علي البغدادي . موفق الدين فيلسوف مكثر من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والأدب ، وكان قوي الحافظة مولده ووفاته ببغداد من مصنفاته : قوانين البلاغة – الجامع الكبير في المنطق الطبيعي والإلهي – الكلمة في الربوبية – تهذيب كلام أفلاطون - غريب الحديث . انظر : الأعلام – الزركلي / -

.

(5) فتح الباري شرح صحيح البخاري – ابن حجر / .

ذلكم لأن في إعطاء النفس كل شهواتها بلادة ، والنفس البليدة عاجزة ، وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة ، وفي تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة . [1]

والمروءة (أن يكون الإنسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير إكثار ولا اطراح ، فإن اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل ، وكثرة مراعاتها ، وصرف الهمة إلى العناية لها دناءة ونقص) [2]

وقد وجه الإسلام نظر الإنسان إلى الغاية التي من أجلها خلق ، فنبهه إلى أن الحياة الدنيا ما هي إلا وسيلة للحياة الآخرة ، فلا ينظر إليها فوق هذا الاعتبار لذا من قصر همه عليها استحق الذم والنكال ، والدنيا لم تذم لذاتها بل الذم للإنسان الذي اعتبرها (غاية لا وسيلة ، وأنها مستقلة لا صلة لها بحياة بعدها ، بل هي الحياة ولا حياة بعدها ، وعندما نظر الإسلام إليها من هذه الزاوية وبهذا الاعتبار ذمها وذم المنهمكين فيها ؛لأنها حياة عارضة زائلة) [3]

وشعور الإنسان بسعادته ليس في الإكثار من الملذات - التي قد تودي ليس فقط بسعادة الإنسان بل بحياته - ولكن في شعوره بالرضا والتضحية وحسن الحال والمآل فـ (حقيقة السعادة في هذه الحياة هي الشعور والإحساس الدائم للمرء بالبهجة والأريحية والطمأنينة نتيجة إحساسه بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير) [4]

فالمنفعة ليست القيمة الوحيدة المعتبرة ، بل لابد من وجود القيم الأخرى التي تشعر الإنسان بإنسانيته ، وتجعله مؤثرا مصلحة الآخرين ، وهذا الإيثار بعيدا عن الحسابات المادية التي أكد عليها بنتام ، فالمسلم لا يرجو إلا رضوان الله تعالى ، والفلاح في الحال والمآل ، ومن هنا كان المجتمع المسلم متماسكا من خلال التحلي بتلك الفضائل التي لا يوجد لها نظير في أي دين آخر .

قال تعالى :

---

(1) انظر : أدب الدنيا والدين – الماوردي – .

(2) نفس المصدر .

(3) علم الأخلاق الإسلامية – مقداد يالجن .

(4) نفس المصدر .

" وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[1]

وموقف الأنصار مع المهاجرين خير مثال على ذلك ، فهم قد قدموا المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدءون بحاجة الناس قبلهم رضي الله عنهم ومن سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . [2]

ومن هنا نقرر أن الإسلام تعامل مع الإنسان تعاملا واقعيا بوصفه روحا وجسدا . إشباع الجسد في إطار المشروعية والتفريق بين ما هو حلال وحرام الاعتدال والتوازن حتى لا تتحول اللذة إلى ألم السيطرة على اللذات من خلال الجانب الروحي العقلي الذي يجعله موجها همه إلى السعادة الأخروية (الغاية العظمى) وطريقه : القرب من الله تعالى والعلاقات بين الناس ليست تجارية بل أخوة وتضحية وحب وجهاد وممارسة هذه الأشياء باعتبارها قيم وليست منافع . [3]

---

(1) الحشر ۞

(2) انظر : تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – تحقيق / سامي بن محمد سلامة – دار طيبة للنشر - ط۞ / ۞۞۞۞ هـ ۞۞۞۞م ۞ /۞۞ -۞۞

(3) قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية – د . سعد الدين صالح ۞۞۞

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة نستطيع أن نقف مع أهم النتائج وهي :

أولا : حرص بنتام على أن يجعل من الأخلاق علما منضبطا كالعلوم التجريبية ، ولكنه فشل في ذلك .

ثانيا : المنفعة والخير والشر عند بنتام قاصرة على تحصيل اللذة وتجنب الألم .

ثالثا : المنفعة العامة التي يرجوها بنتام تعتريها صعوبات تحيل تحققها ، إذ كيف نوفق بين منفعة الفرد والآخرين ؟ ومن هنا ففلسفته أيضا أنانية كسابقيه من النفعيين لكن بثوب جديد .

رابعا : حساب بنتام للذات كان قاصرا على الجانب المادي ، ومع ذلك فلا يوجد معيار ثابت يجعله منضبطا .

خامسا : افتقاد فلسفة بنتام النفعية لقيمة المثل العليا في حياتنا ، وتجعلنا أدوات حسية فقط ، وتهمل المقاصد التي توجه الإنسان نحو العمل ، ولا تعتبر بأي واجب سواء أكان دينا أو ضميرا أو عادات وتقاليد ، ولا قيمة إلا للذة الفرد الشخصية التي تعتبر الباعث والغاية من الفعل الإنساني .

سادسا : يؤكد الواقع أن المكتفين باللذة الحسية لا يشعرون بالسعادة المرجوة ، فهم بين زاهد أو منتحر .

سابعا : الإسلام لا يحرم على الإنسان التمتع بالنافع ، بل يدعوه إلى ما يصلحه بوسطية واعتدال ، وينظر إليه بنظرة متكاملة تشمل جميع جوانبه بنظرة شاملة إلى مختلف القيم ، ولا تقتصر على الدنيا ، بل تشمل الروح والمادة الدنيا والآخرة .

فهرس المراجع

1- القرآن الكريم .
2- أدب الدنيا والدين – أبو الحسن الماوردي – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ط 1 /1407 هـ 1987م .
3- الأخلاق – أحمد أمين - دار الكتب المصرية – القاهرة ط 3 / 1250 هـ1931 م.
4- الأخلاق النظرية – د . عبد الرحمن بدوي – وكالة المطبوعات الكويت ط 1 /1975م.
5- أصول الشرائع – جيرمي بنتام – ترجمة أحمد فتحي زغلول – مطبعة بولاق القاهرة 1309 هـ .
6- الأعلام – خير الدين الزر كلي – دار العلم للملايين – بيروت لبنان – ط6 /1984م .
7- تاريخ الفلسفة – إميل ببرهييه – ترجمة جورج طرابيشي – دار الطليعة للطباعة والنشر لبنان – ط 1 / 1985م .
8- تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم – دار المعارف بمصر إيداع 1949م .
9- تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم - دار القلم – بيروت لبنان – ط3 /بدون تاريخ.
10-تأملات في فلسفة الأخلاق – منصور علي رجب – مطبعة مخيمر القاهرة ط 1 / 1953 م .
11-تفسير القرآن العظيم – ابن كثير –تحقيق / سامي بن محمد سلامة – دار طيبة للنشر - ط2 / 1420 هـ 1999م
12-تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – ابن مسكويه - تحقيق ابن الخطيب – المطبعة المصرية ومكتبتها ط 1 بدون تاريخ .
13-حكمة الغرب – برتراند رسل – ترجمة / فؤاد زكريا – عالم المعرفة عدد72 ديسمبر 1983 م .
14-صحيح البخاري – النسخة المختصرة تحقيق د . مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير – بيروت – ط 3 / 1407هـ 1987م .

15-علم الأخلاق الإسلامية – مقداد يالجن محمد علي - دار عالم الكتب للطباعة والنشر – الرياض ط 2 /1424هـ 2003م .

16-فتح الباري شرح صحيح البخاري – ابن حجر - دار المعرفة بيروت 1379 هـ .

17-الفلسفة أنواعها ومشكلاتها – هنترميد – ترجمة د . فؤاد زكريا – دار نهضة مصر ط 2 / 1975م .

18- فلسفة اللذة والألم – إسماعيل مظهر – مكتبة النهضة المصرية 1936م.

19-في تاريخ الأخلاق – د . محمد يوسف موسى – مطبعة أمين عبد الرحمن القاهرة 1940 م .

20-قضايا فلسفية في ميزان العقيدة الإسلامية – د . سعد الدين صالح – مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة – ط1 / 1418 هـ 1998 م .

21-مبادئ الفلسفة – أ . س . رابوبرت – ترجمة / أحمد أمين – دار الكتاب العربي – بيروت لبنان 1979م .

22-المجمل في تاريخ علم الأخلاق – د. هـ . سدجويك – ترجمة وتقديم وتعليق د . توفيق الطويل ، عبد الحميد حمدي – دار نشر الثقافة – الإسكندرية ط 1 / 1949 م .

23-المدخل إلى الفلسفة - أزفلد كولبه - ترجمة وتعليق / أبو العلا عفيفي – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1942م .

24-مذاهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق – د . توفيق الطويل – النهضة المصرية ط 1 / 1953 م .

25-المشكلة الأخلاقية والفلاسفة – أندريه كريسون – ترجمة الإمام / عبد الحليم محمود ، أ.أبو بكر ذكري – مطابع دار الشعب 1299هـ 1979م .

26-المشكلة الخلقية – د . زكريا إبراهيم – مكتبة مصر ط 3 / 1980 م

27-المعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1403 هـ 1983 م .

28-مقدمة في الفلسفة العامة – د. يحيى هويدي – دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ط 9 / 1989 م .

29-مقدمة في علم الأخلاق – د . محمود حمدي زقزوق – دار القلم الكويت – ط1403/3هـ1983م .

30-مقدمة في علم الأخلاق – وليام ليلى – ترجمة د. علي عبد المعطي محمد – منشأة المعارف – الإسكندرية – 2000م .

31-موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب – روني إيلي ألفا – مراجعة د /جورج نخل – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ط 1412/1هـ1992م

32-الموسوعة الفلسفية المختصرة – نقلها عن الإنجليزية / فؤاد كامل وزميلاه – مراجعة وإشراف / د . زكي نجيب محمود – دار القلم بيروت لبنان – بدون تاريخ.

33-موسوعة لالاند الفلسفية – أندريه لالاند – تعريب د . خليل أحمد خليل – منشورات عويدات – بيروت ط2001/2م .

34-موقع ويكيبديا على الشبكة العنكبوتية /ar.wikipedia.org.